

الفصل الخامس

تحليل المصادر

١ - المصادر القديمة:

لم يكتب لنا أي بدوي مؤلفا عن شعبة أو عن تاريخه، وإنه لمن الممكن بل ومن المحتمل أن التاريخ بالنسبة للبدو إنما يتساوى أمره مع أمر الشعر الذي آل إليهم شفويًا وعن طريق الروايات المأثورة، وإن ما نسميه هنا بالمصادر القديمة، إنما هو مجرد المؤلفات التي خلفها لنا المؤلفون من غير البدو، وأما تناول القبائل البدوية التي وصلت إلى مصر، ويرجع تاريخ هذه المؤلفات أساسا إلى العصر المملوكي، وهي مؤلفات عديدة ومتنوعة، ولكننا يجب أن نقر وأن نعترف - نظرا لأن هذه المؤلفات هي التي تشكل مصادرنا الوحيدة بالنسبة للقرون التي سبقتها - بأن معلوماتنا عن البدو في مصر قد خضعت وتأثرت بالطبع بتأثير النظرة المملوكية على التاريخ البدوي، هذا وإن الكتاب الذي يعوزنا، والذي ربما كان هو أفيد ما وضع عن البدو، هو كتاب الحمداني، الذي يحتمل أن يكون اسمه الحقيقي هو يوسف بن أبي المعالي، (المتوفى عام ٧٠٠ هـ)، وكان اسم كتابه هـذا: "الأنساب"، وهو على ما يبدو قد فقد وضاع، ولكن لحسن الحظ أن بعض مادته قد حفظت لنا في مؤلفات لاحقة وخاصة في مؤلفات القلقشندي، ولكننا نستطيع القول بأنه نظرا لوظيفة الحمداني كمهمندار، ولحياته الطويلة التي أمضاها في خدمة سلاطين مصر في نفس هذا المنصب، فإن الحمداني دون منازع، وكما يؤكد ذلك القلقشندي، هو مؤرخ البدو، فبناء على ما وصلنا من مادة كتابه "الأنساب"، فإنه يبدو أن هذا الكتاب قد حوى سردا لبدو مصر وذكر أنسابهم، وعلاقاتهم بسلاطين مصر، وبالتالي فقد تناول وقائع تاريخية دخل البدو طرفا فيها، كما أنه حدد أماكن نزولهم وإقامتهم في مصر وغيرها من البلاد الأخرى، كشبه جزيرة

العرب والشام والعراق.... إلخ، فالمرجح إذن أن الحمداني لم يقتصر في حديثه على الكلام عن بدو مصر وحدهم، بل تعداهم إلى غيرهم في هذه البلاد الأخرى، أما عن القلقشندي المتوفى في عام (٨٢١) هـ، فإن إسهامه في هذا المجال يعد من أهمها وأوفرها، فقد أوجبت عليه مهامه التربوية أن يتحفا بفصل طويل في كتابه "صبح الأعشى في صناعة الإنشا"، تكلم فيه عن مختلف القبائل البدوية التي حضرت إلى مصر، فهو يرى أنه من المفروض في كتاب الإنشاء ألا يجهلوا أنساب العرب، وأن يعرفوا من بقي من سلالاتهم في مصر في ذلك العصر، كما أن هناك كتاباً آخر أكثر تخصصاً قد ألفه القلقشندي وسماه: "تهاية الأرب في معرفة أنساب العرب"، وقد أهدى هذا الكتاب إلى أبي المحاسن يوسف الأموي القرشي في رأي البعض، أو إلى أبي الجود بكر بن رشيد أمير عربان الشرقية والغربية في رأي البعض الآخر، ولقد وضع الكتاب وفقاً للحروف الهجائية، وهو يضم جميع القبائل العربية بما فيها قبائل مصر، ويعطي المؤلف باختصار النسب الذي تنتمي إليه القبيلة، ومكان نزولها في مصر، وكذلك عدد بطونها وأفخاذها، وربما ذكر القلقشندي في بعض الأحوال النادرة اسم رئيس القبيلة أو أميرها أو مقدمها، وأسماء مشاهير رجالاتها، وقد يشير في بعض الأحيان إلى تاريخ وصولها إلى مصر ومواقع نزولها المختلفة، وما يكون قد وقع لها من أحداث هامة كل ذلك في عدة سطور دون تطويل أو تفصيل للأسف الشديد، والقلقشندي في كل ذلك يحيل القارئ إلي ما كتبه الحمداني، أما الكتاب الثالث الذي وضعه القلقشندي في هذا الموضوع فهو "قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان"، وقد أهداه إلى رئيسه في ديوان الإنشاء البارزي، وقد خصص القلقشندي مادة هذا الكتاب بالحديث عن بدو مصر وعن قبائلها فقط، ولم يتبع القلقشندي نفس المنهج الذي اتبعه في "تهاية الأرب"، فقد قسم "قلائد الجمان" إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول: العرب العاربة (بنو قحطان).

القسم الثاني: العرب المستعربة (بنو عدنان).

القسم الثالث: العرب المختلف في عروبتهم وهم البربر.

وبالرغم من صغر حجم هذا الكتاب وقلة عدد صفحاته، فهو حافل بالمعلومات الجديرة بالتأمل والتفكير، والتي تحثنا غالباً على القيام ببحث متعمق عن طريق مقارنة ما ورد فيه من معلومات وبيانات ومقابلتها بمثيلاتها في الكتب الأخرى، لأن القلقشندي - للأسف - لم يعطنا دائماً التفاصيل المطلوبة، ويعتمد في هذا الكتاب أيضاً وبصورة شبه كاملة على ما ألفه الحمداني.

لقد ترك المقرئزي، المتوفى عام (٨٤٥) هـ - كذلك رسالة هامة عن أعراب مصر، سماها: "البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب"، وهي مقالة وجيزة قيدها المقرئزي لنفسه، ولمن شاء الله تعالى من أبناء جنسه، كان المنهج الذي سار عليه المقرئزي عند وضعه لهذه الرسالة - وهو المنهج الذي تتبعه دائماً - قائماً على دراسة كل قبيلة من القبائل الكبرى في مصر باعتبارها كيانات قائمة بذاته وفي مجموعته، وقد استفاد المقرئزي عند تحريره هذا الكتاب بما ألفه الحمداني وبما كتبه النسابة الشريف أسعد الجواني، ونلاحظ أنه قد ذكر الجواني باسمه كمرجع له مرتين، ولكنه قد أهمل تماماً ذكر الحمداني، وقد لجأنا إلى طريقة مقابلة المعلومات الدقيقة لكي نستطيع أن نوضح ما استعمله المقرئزي من كتابات الحمداني، فهناك جمل بأكملها أوردها المقرئزي وتظهر عند القلقشندي الذي يحيل فيها - إلى ما استفاد من الحمداني دوان مواربة، وهذا لا يقلل بأي حال من الأحوال من أصالة المقرئزي، الذي يعطينا في كل سطر من سطور هذا الكتاب حشداً كبيراً من الأسماء والمعلومات والمؤثرات.

وظهر في القرن التاسع عشر كتاب بعنوان: "سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب للسويدي، المتوفى عام ١٢٦٤هـ، وهذا الكتاب ما هو إلا اقتباس لكتاب القلقشندي "تهاية الأرب" على شكل رسوم وخطوط ودوائر تمثل أنساب القبائل البدوية، وهو يضيف في نهايته نبذة عن أنساب السلاطين العثمانيين، ويمكن الاستفادة به في التنقيب عن بطون القبائل، ولقد طبع على الحجر في بغداد لأول

مرة عام (١٢٨٠) هـ، ثم في بمباي عام (١٢٩٦) هـ؛ وظهرت منه طبعة في القاهرة (بدون تاريخ) أصدرتها المكتبة التجارية الكبرى، وتمثل هذه المؤلفات الخمسة الخاصة بالقبائل البدوية نواة أي دراسة عن البدو في مصر في العصور الوسطى.

كتب الأنساب:

يمكننا أن نسترشد في هذا الصدد بثلاثة كتب من بين كتب الأنساب وهي:

- ١- "جمهرة الأنساب" لابن الكلبي المتوفى عام (٢٠٤) هـ.
- ٢- "جمهرة أنساب العرب"، لابن حزم القرطبي، المتوفى عام (٤٥٦) هـ.
- ٣- كتاب "الأنساب" للسمعاني، المتوفى عام (٥٦٢) هـ.

المصادر الجغرافية التاريخية:

توجد المعلومات الجغرافية أو التاريخية التي تخص بدو مصر مبعثرة في مؤلفات مختلفة، وسنذكر هنا الكتب التي وردت بها معلومات ذات قيمة من هذه الكتب.

مؤلفات شهاب الدين بن فضل الله العمري، المتوفى عام ٧٤٨ هـ، وهي: "التعريف بالمصطلح الشريف"، و"مسالك الأبصار"، حيث نجد فيه معلومات متفرقة لكنها هامة بالنسبة لعربان مصر.

كل مؤلفات القلقشندي، وخاصة الأربعة عشر جزءاً التي تكون "صبح الأعشى في صناعة الإنشا"، والتي تضم في طياتها بالإضافة إلى القسم الخاص بالقبائل البدوية في مصر عدداً لا بأس به من البيانات المفيدة عن البدو وأخبارهم في مصر.

ومن مؤلفات المقرئ نذكر:

"المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار"، وسوف نذكره في بحثنا تحت الاسم المشهور وهو "الخطط" - ولهذا الكتاب أهمية خاصة، لما يحويه من معلومات وافية تؤكد لنا ما ذكره المقرئ من مؤشرات في كتابه "البيان والإعراب"، ولنفس

المؤلف هناك كتاب "اتعاظ الخنفا" المتعلق بالعصر الفاطمي، وكتاب "السلوك في معرفة دول الملوك"، الخاص بالعصرين الأيوبي والمملوكي، ويمكننا أيضاً وبالنسبة للعصرين الفاطمي والمملوكي، أن نرجع إلى مؤلفين هامين لمعلوماتهما، وهما: "تاريخ ابن ميسر"، و"بدائع الزهور" لابن إياس.

وبخصوص التقسيمات الإدارية لمصر في بداية العصر الأيوبي، فيوجد مرجع لهذا الغرض هو كتاب "قوانين الدواوين" لابن مماتي، وقد ظهرت أن كتاب ابن دقماق، "الانتصار بواسطة عقد الأمصار له أهميته لمعرفة مناطق نزول البدو في العصر المملوكي، وكذلك فإن كتاب ابن الجيعان: "التحفة السنية" الذي أورد فيه الروك الناصري الذي تم في العصر المملوكي - لازم لاستخراج أصول الأسماء الجغرافية ومناطق نزول من بقي من البدو بمصر في هذا الوقت، فإذا ما استثنينا هذه المؤلفات الكلاسيكية التي ذكرناها آنفاً، فإن المصادر الأخرى لا تخرج عن كونها مراجع جانبية لا تعطينا سوى بعض المعلومات عن البدو بطريق الصدفة أو في سياق الكلام، وهي مراجع قد تتعلق بالتاريخ أو الأدب في مصر في العصور الوسطى، ومنها على سبيل المثال لا الحصر: "مروج الذهب" للمسعودي، و"الروضتين" لأبي شامة، و"مفرج الكروب" لابن واصل، و"حسن المحاضرة" للسيوطي، و"النجوم الزاهرة" لأبي المحاسن.... إلخ.

الدراسات الحديثة:

إن الدراسات الحديثة عن بدو مصر لا تذكر إذا ما قورنت بغيرها من الدراسات، ويمكن تلخيصها في عدة مقالات في المجلات والمواد التي ظهرت بدائرة المعارف الإسلامية، وهنا يجب أن نذكر بخصوص مواد "دائرة المعارف الإسلامية"، سواء ما ظهر من الطبعة الحديثة أو القديمة أن المراجع ناقصة والمعلومات مختصرة أو معدومة فيما يختص بدو مصر، ونذكر أيضا المؤلفات الأربعة التالية :

١- "قبائل العرب في مصر"، لأحمد لطفي السيد، وهو الكتاب الذي ظهر منه الجزء الأول فقط في مصر عام (١٩٣٦)م، وكان المؤلف ينوي إصدار ثلاثة أجزاء أخرى لهذه الدراسة، ولكنها لم تظهر مع الأسف على حد علمنا.

٢- الدراسة التاريخية الهامة التي قام بها محقق كتاب "البيان والإعراب" للمقرئزي، الدكتور عبد المجيد عابدين.

٣- "القبائل العربية في مصر في القرون الثلاثة الأولى للهجرة"، لعبد الله البري، القاهرة (١٩٦٧)م، وهي تقتصر على دراسة القبائل المصرية في تلك الفترة، واتبع فيها مؤلفها طريقة التقييش المنهجي للمعلومات التي أوردها بعض الكتاب القدماء.

٤- "معجم قبائل العرب القديمة والحديثة"، وهو قاموس مفيد في ثلاثة أجزاء، أصدره عمر رضا كحالة، وطبع في دمشق، عام (١٩٤٩)م.